

## نحن في صراع دائم

للأستاذ حسين الظريفي



الغائب وتتصادم ، ويعلو بعضها علي بعض درجات وطبقات ، وكل رغبة منها تريد بلوغ القمة والخروج من الزاوية إلى النافذة ، لتلقى النور ، وتعرب عن نفسها بأعمال الجوارح ؛ ولكنها لا تكاد تصل السلم حتى تجد عليه رقيباً عتيداً يدفع بها إلى الحضيض . وهكذا تبقى الغائب حية في القبر تتنازع وتتصارع والريب يأبى عليها إلا أن تنحدر إلى ما وراء مجرى الشعور ، مهما استحر هناك القتل وطال عليه الأمد . وما ذلك الريب إلا الضمير

فالرغبة الجامحة تصدم بقوة الضمير ، فيضغط عليها حتى تنحدر إلى قاع النفس وتستقر فيه ، غير قانطة من بلوغ منطقة الوعي من العقل وفرض نفسها عليه ، وتحريك الجوارح به وفق ما تريد .

وما دامت الغائب محجوراً عليها في قرارة النفس ، فإنها تبقى في نزاع لا يهدأ ، تستنفذ فيه ما هي بحاجة إليه مما نملك من طاقة . ونحن إن لم نشعر بجلبة هذا الصراع في داخل النفس فإن تأثرنا به ولا ريب كبير . وقد تبلغ شدة التنازع بين الغائب إلى حد تتلع فيه كل نشاطنا ، حتى نظهر وكأننا لا نملك شيئاً من قوة الاندفاع إلى العمل وتجعلنا مظاهر التردد والحول .

إن الرغبة المقموعة تريد حرية التصرف فيأبى عليها العرف الاجتماعي إلا أن تقهر ، حتى إذا كثرت الغائب المقهورة واستطال عليها الزمن بلغ التنازع فيما بينها ذروته وأصبحنا ونحن من أنفسنا في ساحة حرب تضيق فيها الجهود سدى . ذلك لأن من طبيعة الرغبة أن تمتلك حرية الاستمتاع بالإرادة ، فإذا هي قهرت وانحدرت إلى ما وراء الشعور ، اتخذت لنفسها هناك موقفاً عدائياً لكل رغبة فيه ، تليدة أو جديدة ؛ حتى إذا ازدادت الغائب وتمادت على ما هي فيه من تكالب على الظهور ، نشأ عندنا ما ينبع عنه بالقلق الداخلي أو النفسي ، ونحن في مثل هذه الحالة لا نشعر إلا بذلك الشعور الغامض العميق الذي تسودنا فيه بلبلة الفكر فلا نعرف ما ينبغي أن يدرك أو يترك . وبهذه الحرب الدائرة بين مختلف الغائب نستهلك الكثير مما نملك من طاقة عصبية وذهنية ، فيبدو احتياجنا إلى مثل هذه الطاقة في أعمال

كان يعتقد في العقل أنه ليس إلا ما تليه علينا تجارب الحياة ؛ فالطفل يولد ولا عقل له ، حتى يأخذ عن الوسط ما هو فيه ، ويظل رهين شروط حياته الخاصة والعامة بلا حد ولا أمد ، ومن شب عن الطوق وتفرّد عن المجموع فقد أوتى حظاً كبيراً تلك كانت نظرة العلم إلى العقل من حيث يظهر ومن حيث يتطور . غير أن قفها تخفضت عنه بداية القرن الحديث ، نظر إلى هذا العقل الذي يولد بمد الولادة ويظل محدوداً في نموه وسموه بين المهد واللمح ؛ فأحاط به ثم تجاوزه إلى ما وراءه فأيقن أن هناك عقلاً باطناً يكمن وراء عقلنا الظاهر أورتتنا إياه قرون تتصل بأول الخليقة ؛ فهو ميراث ماضينا من حيث يبدأ إلى حيث يتصل به حاضرا الذي نحن فيه ، ولا تزيده الأحقاب إلا شدةً ومداً

وقد أسفرت بحوث العلم عن إثبات ما لهذا العقل الكامن من الأثر البالغ ، في تلوين النزعة والفكرة والإرادة واقتيادها إلى حيث يريد ، على غير شعور منا بما نفعل وما لا نفعل

إن موضع القوة في هذا العقل قائم وراء ما له من مظهر الخفاء ؛ ففي غفلة عما نعيه ونستريحه من شئون عقلنا الشاعر ، يقوم العقل الباطن بمعمليات التفاعل حتى تنبث من أعماقه كلته الأمرة أو الزاجرة فتدين لها الجوارح . ونحن لا نرى ما يدبر ويقرر إلا ذلك الأثر الذي تقوم به ، غير شاعرين بالبواعث

إن قوة العقل الباطن آتية مما يبطن في فعله وانفعاله ، في ذات نفسه وفيما وراءه من عقل واسع محيط به الظروف والوقائع . فالرغبة فيه خفية يضبط عليها ما تواضع عليه الناس من عرف وتقليد . والحركة فيه قائمة دأمة ولكنها في قمر غير قريب ، وما أقول باستحالة الوصول إلى قاعه البعيد . ولكن دون ذلك أهوال

هناك حيث لا يصل سمح ولا بصير ، إلا ما ندر ، تزدحم

وعينا الأخرى ، ونظهر وكأننا عاجزون .